مستويات تلقي الدرس اللساني في الثقافة العربية الحدود والآفاق.

د. عبد الكـــريم أبزاري
أستاذ باحث، الكلية المتعددة التخصصات
جامعة مولاي إسماعيل-(المغرب)

التقديم:

سرّعت الثورات العلمية والتكنولوجية الحديثة والمعاصرة في بلورة أنساق نظرية وتطبيقية خاصة بمستويات تلقي المعارف والمدارك الثقافية والفكرية والعلمية بين الأمم، هذا ما أضفى نوعا الشرعية على هذا التثاقف وبخاصة في شقه اللغوي واللساني، الذي أفرز هذه الترسانة المنهاجية والنظرية التي أرست قواعدها نظرية التلقي، وسهلت السبل في وضع آليات للتعامل مع الإرث اللغوي واللساني على وجه التحديد.

لقد كان لهذه المثاقفة الفكرية واللغوية الأثر العلمي على تطوير المدارك والمعارف اللسانية لدى المتلقي العربي، كما أسهمت في نقل و تنقيل الثقافة اللسانية الغربية إلى المتلقي العربي، وبالتالي إثراء الدرس اللساني العربي بنظريات لسانية حديثة تجلت أوجهها في كل مستويات الدرس اللساني العربي.

1- نظرية التلقي والدرس اللساني

1-1حول إشكالية التلقي والترجمة

من المعلوم أنّ الفكر الإنساني متفاعل بالضرورة نتيجة تداخل المعارف الإنسانية وتقاطعها نتيجة النقل الفكري والثقافي بين الأمم. وإذا كان علماء اللغة والآداب على وجه الخصوص بذلوا الجهود المضنية من أجل نقل المعارف والمدارك المستوحاة من العلوم الإنسانية إما عن طريق التأليف أو الترجمة تنظيرا أو ممارسة، هذا على مستوى الإنتاج العلمي والفكري لدى المؤلفين والمترجمين أو على مستوى تاريخ التلقي.

يتأطّر هذا العمل ضمن سياق تلقي العلوم اللغوية واللسانية في الوطن العربي، و يمكن أن نحدّد ملامحه انطلاقا من المطالب التالية:

-الالتقاء بين ثقافتين مختلفتين، وتلقي العمل الأجنبي يختلف عن تلقي العمل الذي يكون من أصل لغة المترجم، إذ يفترض في تلقي العمل الأجنبي الإحاطة بظروف وحيثيات إنتاج العمل الخاضع للترجمة أو للنقل، ثم الإحاطة كذلك بالنصوص والأعمال المصاحبة سواء كانت إبداعية أو نقدية أو تفسيرية حول العمل المنقول والمترجم؛

-الأخذ بعين الاعتبار النظرة التأويلية لمنتج النص المنقول، وتجديد الأفق التاريخي المساهم في إنتاج هذه الأنواع من الخطابات العالمة انطلاقا من أصولها الابستمولوجية والسوسيولوجية، من جهة المتلقي تكون في تلاؤم مع المكوّنات الثقافية والمعرفية المتدخلة في قراءة النص الأصل. وبالتالي فالأفق التاريخي محدد أساس لفعل وسياق التلقي؛

-المطلب الثالث هو القارئ، أو شخصية المتلقي أو مستوى التلقي للنص المنقول أو المترجم، في هذه المرحلة يتداخل الجانب العلمي بالجانب الاجتماعي لتحقيق أهداف المترجم، وتوفير ظروف التلقي.

وعن الأهداف المتوخّاة من الترجمة ونقل الأعمال الأجنبية إلى اللغة العربية، أو لنقل نقل المعارف والمدارك من لغة معينة إلى لغة أخرى، يقول حانون مبارك في تقديمه لأحد الكتب المترجمة: " ومن الأكيد أن القيام باختيار هذا النص وتعريبه يخدم هدفين اثنين:

الهدف الأول ويكمن في تقديم المعارف الحديثة الجيدة، وتعميمها على أوسع عدد من القراء.

الهدف الثاني يتجلى في محاولة تأصيل هذا العمل، وجعله لا يتجزأ من بنياتنا الثقافية عملا على استنهاضها، وذلك انطلاقا من معاودة النظر في مكوناتها وفي بنائها على أسس معرفية صلبة وجديدة"[1]، فماذا عن نقل وترجمة العلوم اللسانية.

الإشكال وربما التحدي المطروح بحدة على الباحث في مجال اللسانيات بصفة عامة واللسانيات العربية بصفة خاصة هو التساؤل التالي: هل فعلا اللسانيات الغربية في مجملها صالحة لمعالجة قضايا اللغة العربية بكل أشكالها وتفريعاتها؟ وإذا كان الرد بالإيجاب، هل القواعد و النظم والمناهج اللسانية العربية ليس لها من القدرة ما يؤهلها لمعالجة قضايا اللغة الأصلية؟

1-1-التوصيف العلمي للسانيات

تعامل المترجمين العرب مع العلوم اللسانية الغربية يفرض على الباحث التعريف بهذا العلم بحسب أهميته في دراسة العلوم اللغوية، وتحديد موضوعه أو المادة الخام التي يشتغل عليها هذا العلم، و كذلك بحسب أهم المناهج المعتمدة في معالجة الظاهرة اللغوية[2].

إنّ اللسانيات، وبفضل اكتمال التصور العام لديها لدراسة اللغة، أصبحت تحتل موقعا مركزيا داخل العلوم الإنسانية، الشيء الذي جعلها تفرض عليها نموذجها التحليلي ومعجمها المفهومي 3.

وقد كان لهذا التكامل المعرفي على مستوى نماذجها التحليلية، وغناها من حيث المفاهيم الموظفة الأثر الواضح على دراسة اللغة العربية بحيث أقبل العديد من الدارسين العرب على اتباع مناهج اللسانيات الحديثة. بل أصبحت المخرج الوحيد، في نظر عبد الصبور شاهين، "من الحائط المسدود الذي وقفت عنده دراسات النحو والصرف واللغة من بعيد" 4.

من جهة أخرى الاهتمام باللسانيات واستثمار مناهجها ومفاهيمها شمل كل مجالات البحث اللساني العربي. وقد ظهرت هذه الحركية الثقافية في فترة من الفترات التاريخية كان علماء اللغة العرب في أشد الحاجة لمثل هذه المناهج الحديثة في الدراسات اللغوية، كان فيها نقل العلوم اللسانية وترجمتها باديا للباحثين والدارسين، مما ترك تأثيرا واضحا للسانيات في الدراسات الأكاديمية والأبحاث العلمية، ومن هذا المنطلق تتجلى الأهمية الكبرى للسانيات إذ اعتبرت في مقدمة كل العلوم الإنسانية، مما وجب على الباحث والمتلقي الإلمام بمبادئها وأصولها، إن كانت له بالفعل نية القصد في مسايرة الركب الحضاري والثقافي سواء المتضمن في اللغة المترجم عنها، أو اللغة المترجم إليها5.

وعن أهمية اللسانيات في قراءة التراث اللغوي العربي، وتطبيق بعض نماذجه على الظاهرة اللغوية يشير إلى هذه الأهمية وهذه المكانة حمزة بن قبلان المزيني في تقديمه لترجمة كتاب نعوم شومسكي 61928. يتبوأ نعوم شومسكي مكانة في تاريخ اللسانيات لا يدانيه فيها إلا القلة من العلماء. فلقد بدأ توجها جديدا في دراسة هذا الموضوع منذ أن نشر كتابه البنى التركيبية في سنة 1957، فأحدث بذلك ما يشبه الانفصال عن المناهج التي كانت تتبعها اللسانيات، وعن الأهداف التي كانت ترسمها لنفسها، فلم يعد الهدف وصف المادة اللغوية التي يجمعها الدارس، بل صار تفسيرا يقصد إلى اكتشاف ما يمكن وراء الظاهر الذي تمثله هذه المادة اللغوية. وكان هذا الهدف هو الدافع وراء كل التغيرات التي طرأت على اللسانيات منذ 1957. فكل نموذج مقترح يقترب خطوة من ذلك الهدف، ذلك أنه يمهن السبيل إلى اقتراح نموذج آخر أكثر إحكاما وكفاءة"7.

تلقى القارئ أو المتلقي العربي الدرس اللساني الحديث واستثمره في البحث عن الموضوع الحقيقي للسانيات، ولتحقيق هذا المطمح قُدِّم موضوع اللسانيات باعتباره العلم الحديث الذي موضوعه اللغة في ذاتها، ولذاتها، وينطوي تحته كل المستويات اللسانية المعروفة. والمقصود باللغة هنا هي كل الكلام الإنساني، فالأصول والخصائص الجوهرية التي تجمع بين سائر اللغات في كل صورها هي موضوعات علم اللغة، وليست لغة بعينها بل اللغة من حيث هي وظيفة إنسانية عامة8. ورغم هذه التحديدات لموضوع اللسانيات في حينها كان يلفّها الغموض والضبابية في ظل النقاش العلمي الذي كان رائجا حول تحديد موضوع اللّسانيات الحقيقي، ولربما لازال لحد الآن الجدل قائما حول هذا الموضوع.

في جانب آخر لقد نجحت اللسانيات في تطوير منهج علمي متماسك، له أدواته الإجرائية الواضحة والقوية، كما استطاع أن يكون لهذا المنهج جهازا مفاهيميا له من

الكفاية ما يحقق الظاهرة اللغوية في جميع جوانبها، وبهذا أصبح المنهج اللساني غير مسبوق في مجال الدراسات اللغوية المعاصرة، ويرجع السبب في اعتماد هذه المناهج اللسانية إلى كونها، بالإضافة إلى حداثتها، لا تقتصر على لغة دون لغة، بل تطمح إلى بناء مناهج كلية تعالج قضايا الظاهرة اللغوية في كليتها وبهذا تحقق مطمح الشمولية والكلية في الدراسات اللسانية المعاصرة.

إن سر التهافت على تلقي المناهج اللسانية الغربية وتطبيقها على اللغة العربية راجع بالأساس إلى كون اللسانيات جاءت بروح نظرية ومنهجية جديدة قائمة على وضوح المنطلقات والبرهنة والاستدلالات والصياغة الصورية، وعلى دقة في أدوات التحليل وتقنياته. وقد وقف عدد من الباحثين العرب على بعض التحديدات التي ميزت الفكر اللساني الحديث ومنها على الخصوص أن:

" اللسانيات فكر أكثر شمولية؛

اللسانيات مراجعة دائمة ومستمرة للمفاهيم الجوهرية التي تقوم عليها،

اللسانيات أكثر تفتحا على معارف أخرى كالمنطق والرياضيات وعلم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة؛

اللسانيات فرضت نفسها في إطار العلوم الإنسانية كنظرية ومنهج"9.

وبهذه التحديدات قطعت اللسانيات مع نظريات الفكر اللغوي القديم، ببناء نظريات ومناهج ساهمت في تحديد الموضوع الأساس للبحث اللساني ووضعت الجهاز المفاهيمي والأدوات الإجرائية الكفيلة بمعالجة جميع فروع الظاهرة اللغوية مستفيدة من النتائج المتحصل عليها في العلوم الطبيعية والحقة أو الدقيقة.

2- حدود وضفاف التلقي اللساني؛

2-1- المثاقفة اللسانية والتقاطعات الممكنة

الحديث عن تلقي الدرس اللساني الحديث واستثماره في قراءة الفكر اللساني العربي القديم منه بالخصوص يدفع بالدارس إلى التساؤل حول القيمة العلمية والمنهجية والنظرية التي يمكن الاستفادة منها في حال الاستعانة بمناهج الدرس اللساني الحديث، وبالتالي الوقوف عند حدود الاستفادة من هذا المنتوج اللساني، كما يمكنه أن يقف عند كفاية هذه الأعمال اللسانية الحديثة في معالجة قضايا اللغة العربية، وإن كان كذلك، ما المعيار أو المعايير العلمية والإجرائية المعتمدة في تفضيل هذا المنهج أو ذاك في دراسة وتحليل الظاهرة اللغوية؟

إن الإجابة عن هذه الإشكالات المتعلقة بتلقي الدرس اللساني الحديث واستثماره في معالجة الظاهرة اللغوية العربية من شأنه أن يفرض علينا التوقف لتوصيف بعض عوائق التلقي.

فهي عوائق سوسيولوجية ذات طابع اجتماعي مرتبط بغياب الاهتمام بقضايا المجتمع وكذلك هامشية اللسانيات في القضايا والتحديات التي تواجه الأمة، وبخصوص العوائق الابستمولوجية فمرتبطة بإشكالية العجز اللساني عن معالجة بعض القضايا المتعلقة بتحديد الموضوع الخاص باللغة؛ ومن ذلك الإشكالية القديمة والحديثة المتعلقة بالمصطلح اللساني ومسألة التعريب10.

والإجابة على مثل هذه العوائق من شأنه أن يحدد حدود التعامل مع مضامين الدرس اللساني الحديث، و تأطير طرق تلقي واستثمار المناهج المنقولة والمترجمة.

الأخذ من الآخر في إطار المثاقفة العالمة لا يمكن أن يختلف فيه اثنان وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بمدعمات البحث العلمي الرّصين، واللسانيات شانها شأن كل العلوم من حقها أن تقدم المناهج الملائمة للدراسة اللغوية بغض النظر عن خلفيات التكوين الثاوية وراء بنائها لمناهجها ونظرياتها الذي جاء في سياق تراكم علمي ومعرفي متداخل ومترابط، نتيجة لهذا التراكم يصبح العلم بصفة عامة ملكا للجميع، يمكن أن يطوَّعَ وفق راهنية القضية اللغوية المدروسة، وكذلك وفق الأهداف العلمية التي يحددها الدارس لدراسته ثم كذلك، وهذا هو الأساس، تحديد مستويات تلقي هذه المناهج وفق نظرة براغماتية نفعية تساعد على الوصول إلى نتائج عملية.

وإذا كانت هذه هي إستراتيجية تلقي الدرس اللساني الحديث، فعملية استثمار هذه التراكمات من شأنه توجيه البحث في القضايا اللغوية واستخلاص النتائج المرجوة، فـ"صحيح أنّ اللسانيات هي نظرية غربية ولكن منطلقها الفلسفي وهدفها النفعي البراغماتي لا ينتميان إلى الغرب، وإنما هما ملك حضارة الإنسان المعاصر على نطاق الجنس والهوية والعرق. إن الاختلاف بين الأمم يكمن في كيفية استخدام نتائج علم من العلوم وتوظيفها في ناحية معينة، وهكذا فإن اختلاف الاستخدامات لنتائج العلم تتبع اختلافات الإيديولوجيات في العالم. أما قضية استخدام الوسائل والأساليب والتقنيات العلمية والتوصل إلى هدف أو غاية علمية معينة، فإنها مسألة مشتركة بين جميع الحضارات الحديثة."11.

وفق هذا التصور يمكن للمثاقفة أن تتم بين الفكر اللساني الغربي والتراث اللغوي العربي، ويمكن للمتلقي العربي أن يستثمر هذه المنطلقات الفلسفية والنظريات المنهجية والعلمية في معالجة القضايا اللغوية وبهذا تتحقق حدود الاستفادة من المناهج اللغوية الغربية. ويتحقق اختيار المنهج المعتمد في الدراسة.

2-2- حدود التلقي اللساني

تحديد الإطار العام للمثاقفة الثقافية واللسانية بين الفكر العربي والفكر الغربي تتوقف على حاجة المتلقي، سواء كان هذا التلقي شارحا أو عالما، في تفسير ظاهرة لغوية معينة، أو دراسة موضوع يحتاج فيه هذا المتلقي إلى إمدادات من ثقافة الآخر. لذا فوضع حدود معينة لمساحات التلقي اللساني يستحيل في ظل تعدد النظريات العلمية، و اختلاف المناهج المعتمدة في التحليل وتنوع مجالات الفكر اللساني الحديث.

هذا التحدي الذي يقف أمام تحديد معالم التلقي اللساني فرضته نظرة الإعجاب التي أبداها بعض اللغويين واللسانين العرب اتجاه الفكر اللّساني الحديث فقد "أدرك العرب أهمية اللسانيات في القرن العشرين وقدرتها الجبارة على صياغة المعرفة النقدية الحديثة، وخطرها في تشكيل الوعي المنهجي المتجدد في العلوم الإنسانية والاجتماعية"12.

ولتأطير العمل بما توافد من ثقافة الآخر من نظريات ومناهج تخص الفكر اللساني الحديث، يرجح التعامل بحسب الحاجة إلى ما من شأنه أن يكشف عن خصائص التراث اللغوي العربي، وتحديث النظر في مكوناته النظرية والتطبيقية.

3- مستويات تلقي الدرس اللساني الغربي

3-1- التلقي التعليمي

يدخل المتلقي في تعاقد مع الناقل الثقافي أو المترجم لثقافة الآخر وبالتالي تمثل الأهداف التعليمية الغاية التي يصبو كل باحث إلى الوصول إليها، ويظهر هذا جليا من خلال مقدمات المؤلفات اللسانية، خاصة إذا وضع بالحسبان أن هذه المقدمات أو العتبات النصية هي أول ما يلفت نظر المتلقي في أول لقاء مع العمل الثقافي أو اللساني أو اللغوي. لهذا كله راهن العديد من المؤلفين على إعطاء الأهمية القصوى لهذا الجانب بالتعبير بطريقة مباشرة على العادي أهمية العتبة النصية، يؤكد هذا التصور عبد السلام المسدي بقوله في تقديمه لأحد مؤلفاته:"هدفنا الوحيد الجدوى التربوية والإبلاغ التعليمي، وبهذا الصنيع يغدو الكتاب أداة تثقيفية إذ بوسعه أن يمكن القارئ من الاسترسال مع صفحاته متتبعا قصة اللسانيات في يسر، وعلى غير تراكيب فني". 13

وهو نفسه الهدف الذي ينبغي أن يحققه مؤلف آخر حيث يقول:"الغرض من مواضيع هذه المجموعة التعريف بأسس اللسانيات العامة، ووصف بعض أدواتها الإجرائية وتوضيح أهم أهدافها، وكذا المساهمة في تطوير و إغناء أساليب بحثها" 14.

ولا تكتفي هذه العتبات بمثل هذه الإشارات التمهيدية والتوجيهية بل تحاول أن تستدرج المتلقي عن طريق الإغراء والتغرير كما هو واضح من هذا القول:" قصدنا دعوة القارئ العربي إلى تذوق هذا العلم الحديث، والإلمام به، من أجل ذلك هو كتاب تمهيدي"[15].

3-2- المثاقفة الشارحة للمتن اللساني

إنّ الاشتغال على المتن اللغوي الغربي يفرض نوعا من التعامل المنهجي على الباحثين والدارسين للفكر اللساني الغربي، فقد واجهت الناظر فيما يخص التعامل مع المناهج اللسانية وخاصة إذا عرفنا أن هذه المناهج لازالت لحد الآن لم تجد حلها النهائي وذلك راجع لعدة أسباب يشخصها حانون مبارك تعليقا على التطورات الكبيرة التي عرفتها اللسانيات منذ فيردناند دي سوسير "فرغم التطورات الكبير التي شهدتها اللسانيات منذ سوسير، فإن عمله يبقى ذا قيمة لا تنكر، إذ لا تزال مجموعة من الإشكاليات التي آثارها راهنة وغير محسوم في أمرها حسما نهائيا، وفضلا عن ذلك، ورغم دقة المناهج اللسانية وصرامتها، فإنه يمكن القول إن أي شيء لم يجد حله النهائي مع أي عمل من الأعمال اللسانية الرائدة. أيعود ذلك إلى كون الثورات اللسانية ثورات داخلية لا تعمل إلا على تغيير تحالفات اللسانيات مع سائر العلوم؟ أم يعود إلى غنى الممارسة اللسانية وتعقيدها وقبولها لمقاربات مختلفة؟، أم يعود إلى المنطلقات الفكرية والفلسفية التي يصدر عنها كل اتجاه لساني؟، أم يعود إلى كل ذلك وإلى غيره."[16]

لقد كان لعمل سوسير بعد نقله على الآخر الأثر الواضح في مدّ الثقافة اللسانية العربية بالمناهج التحليلية والنظريات الإجرائية بعد تجاوز تلك النظرة التبسيطية والاختزالية لهذا الفكر، إذ عمل بعض المترجمين في المرحلة الشارحة إلى جعل كتاب دي سوسير يستعيد ثراءه النظري الذي غالبا ما عملت النظرة الاختزالية المنهاجية والبيداغوجية للسانيات البنيوية على إفقاره باختزال هذه النصوص أو هذه الدروس إلى قائمة من المفاهيم ومن الأزواج التعارضية المنتزعة من سياقها ومن النسقية المفهومية التي تؤطرها.

من هذه الدعوة التوجيهية تمت الدعوة إلى إعادة قراءة كتاب سوسير"دروس في اللسانيات العامة" بغية إغناء النظريات اللسانية المعاصرة، والمساهمة في رسم آفاقها المستقبلية، وفق نظرة تمنح لهذا الزخم من النظريات المكانة الضرورية لها.

يرجح الكثير من الباحثين أسباب تأخر العرب في التعاطي مع الفكر اللساني الغربي إلى تأخر نقل وترجمة أعمال المنظر اللساني السويسري[17] " coure de linguistique générale"، بعدة ترجمات منها "محاضرات في الألسنية العامة"[18]، أو"دروس في الألسنية العامة[19]"، أو "علم اللغة العام"[20]، أو"فصول في علم اللغة العام"[21]، أو"محاضرات في علم اللسان العام"[22]؛ بحسب المصطلحات العربية المستعملة في الترجمة، وقد نتج عن هذه الوضعية الاصطلاحية، زيادة على التأخر الواضح في نقل هذه الأعمال والاستفادة منها في دراسة الفكر والثقافة اللسانيتين، إذ أصبحنا نعيش بلا (مفاتيح) لسانية طوال هذه المدة، وإن كانت كتاباتنا اللسانية وغير اللسانية لا تخلو من إشارات إلى مفاهيم سوسيرية، ومن توظيف لها بل ومن انتقاد لبعضها، مدشنة بذلك عصر التجاوز التبسيطي في جزء هام منها." [23]

وبالنظر إلى طبيعة النظر في الثقافة اللسانية الغربية في فترة من فترات التعاطي مع هذا الإرث يظهر مدى التفاعل والتأثر بامتدادات الفكر اللساني الغربي وراهنية مناهجه في دراسة الظاهرة اللغوية العربية، بل تحدد ما يسمى بالمثاقفة الشارحة للفكر اللغوي الغربي.

3-3- القراءة العالمة للفكر اللساني

يبدو أن مسألة الحسم في طبيعة اللغة العربية من أولويات البحث في اللغويات بصفة عامة، فاللغة كيف ما كانت طبيعتها تدرس تحت إطار ما يسمى بالنّحو الكلي أو الكليات النظرية الواضعة لقواعد كلية تسهم في الوقوف عند الإمكانيات المفترضة لكل لغة على حدة. وهذا شأن اللغة العربية فهي ليست "كما يدعي بعض اللغويين العرب، لغة متميزة تنفرد بخصائص لا توجد في لغات أخرى، ومن ثمة لا يمكن وصفها بالاعتماد على النظريات الغربية التي بنيت لوصف لغات أوروبية، بل العربية لغة كسائر اللغات البشرية، فاللغة العربية بصفتها (لغة) تنتمي إلى مجموعة اللغات الطبيعية وتشترك معها في عدد من الخصائص(الصوتية والتركيبية والدلالية)، وتضبطها قيود ومبادئ تضبط غيرها من اللغات، وبصفتها (عربية) تختص بمجموعة من الخصائص التي لا توجد في كل اللغات وإنما توجد في بعض اللغات، وكونها (عربية) لا يعني أنها تنفرد بخصائص لا توجد في أي لغة من اللغات، بل لا نكاد نجد ظاهرة في اللغة العربية إلا ونجد لها مثيلا في لغة أو لغات أخرى، هندأوربية كانت أو غير هند أوربية " [24].

يضاف إلى إشكالية تحديد طبيعة اللغة في إطار القراء العالمة أو المثاقفة العالمة إشكالية أخرى بادّعاء العلمية والمنهجية، وهذه من بين أزمات البحث اللساني العربي والمتجلية في ادّعاء العلمية أو المنهجية، وهذه الظاهرة تأخذ أشكالا متعددة، من تصور

خاطئ للعلم إلى تصور خاطئ للافتراضات العلمية، إلى تصور خاطئ لما يعتبر تطبيقا لنظرية ما[25].

ولتجاوز هذا التصور الخاطئ في الاستفادة من مناهج ونظريات الفكر اللّغوي العالمي، يقترح الفاسي الفهري خطاطة الخروج من هذه النظرة الاختزالية والتوجسية من الفكر العلمي الحديث لتحقيق الانتظارات المرجوة من قراءة التراث العربي بمنهجيات و نظريات تستحضر أفاق وامتدادات هذه النظريات العلمية الحديثة، بدون الاستغناء الكلي عن الخصوصيات التاريخية، الذاتية والموضوعية والبحثية المتعلقة بالظاهرة اللغوية المدروسة " ننتظر من البحث اللساني العربي أن يهتم بجوانب ثلاثة أساسا: حاضر اللغة العربية وتاريخها، وتاريخ البحث فيها، والجانب الثالث هو ما ندعوه أحيانا بالتراث (اللغوي/ النحوي/ البلاغي). وقد صار البحث اللساني العربي في اتجاهين:

-اتجاه أول أسميناه **بلسانيات الظواهر**، تجسد في محاولة بناء أنحاء، أو أجزاء منها، للغة العربية الحالية، أو للهجات العربية الحالية، إلا أن قليلا جدا من الأبحاث ما اهتم بنحو اللغة العربية القديمة. وهذا الاتجاه برمته غير منتشر على كل حال في العالم العربي، بل جل متزعميه يوجدون في الغرب، أو درسوا هناك.

- اتجاه ثان اهتم بدراسة التراث النحوي/ البلاغي/ اللغوي، واقترح قراءات متعددة لهذا التراث. وهذه القراءات على نوعين: قراءات تقف عند شرح المادة الموجودة في التراث وتنظيمها، وقراءات تحاول أن تنتقل ممّا هو موجود في هذا التراث بغية عصرنته والخروج به إلى الحاضر.

القراءات من النّوع الأول نفهمها على أنّها مساهمة في التعريف بالتراث وإحيائه، وتسهيل الاطلاع عليه. والقراءات من النوع الثاني نريدها مساهمة في تاريخ الفكر اللغوي القديم، علما بأن هذا العمل يكون، ضرورة، ذا أبعاد نظرية محدودة، وأنه لابد من احتياطات منهجية على النتائج التي تصل إليها مثل هذه الأبحاث، نظرا إلى أن القارئ غالبا ما يسقط ما هو محمل به من تصورات، ويجد في التراث ما لم يكن فيه في ظروفه التاريخية، وما لم يكن في المنظومة المعرفية لعصره، إذن يفسد عليه تصور الفكر القديم والفكر الحديث في نفس الآن."[26]

إنّ التراث اللغوي في بعده العام عبارة عن معطيات اللغة الموصوفة، أو مفاهيم وصفية، أو هو أصول وتأملات، ومن هذا المنطلق وجب التمييز بين منهجين أو بين نسقين لقراءته وتحليله؛ النّسق الفكري يهدف إلى التأريخ للفكر، ونسق المعطيات الموجودة في هذا التراث الذي يمكن أن يستعمل لبناء نحو اللغة العربية القديمة.

4- مستويات استثمار المعارف اللسانية الغربية؛

على إثر المثاقفة العالمة التي برزت بشكل كبير على مستوى استثمار نتائج نظريات الفكر اللغوي واللساني العالمي، ظهرت عدة دراسات في الوطن العربي تحاول توظيف المناهج اللسانية الحديثة في قراءة التراث اللغوي العربي منهجا، وإجراءً، وتنظيرا، وممارسة، ولقد كانت لهذه الدراسات الأثر البالغ على استكشاف خصوصيات اللغات وتحديد طبيعتها، ومنها اللغة العربية. هذه الأرضيات النظرية المنبثقة من التراث اللغوي العربي والمؤطرة بالنظريات اللسانية الحديثة لوحظت من قبل الدارسين والباحثين اللسانيين واللغويين في بعض البلدان العربية نقتصر على تصورين اثنين27:

4-1- في التصور المغربي

البحث في الفكر اللغوي العربي يطرح على الدارس إشكالات عدة تتعلق بتحديد نوعية النظرة التي يمكن بها تصور هذا التراث العربي، ثم تحديد الموقف المعلن اتجاهه، ثم تحديد الآليات المنهاجية المعتمدة في استكشاف هذا التراث اللغوي للوقوف عند (وظيفية هذا التراث) 28 و (تاريخية التراث) 29. توفير هذه الوسائل لقراءة التراث تجعلنا لا نقف عند النتائج المتوصل إليها في حينه والاكتفاء بتطبيقها على الفكر اللغوي بإتباع قاعدة "ليس بالإمكان إختراع أكثر مما كان" ولكن وجب استثمار هذه المعطيات العلمية "إن وجدت" ثم التساند والتعاضد بما وصلت إليه الأبحاث العلمية الحديثة.

يقول الفاسي الفهري في تحديده لإستراتيجية التعامل مع التراث اللغوي والبلاغي:" تجربي مع التراث، أنني في البداية قد أنطلق معه، ولكنني سرعان ما أتركه لأسباب هي أنني كلما تقدمت وجدت أنه لا يكفيني، في إطار الصراع الحالي لا يكفيني أن أعرف فقط ما هو موجود في التراث، وإنما يجب أن أتخطاه إلى شيء آخر، وهذا الشيء الآخر هو ما وصلت إليه الأبحاث العلمية الحالية، وما نعرفه بفضل العرب وبفضل غير العرب عن اللغات، لان هذا رصيد إنساني ساهم فيه الهنود وساهم فيه الفرس وساهم فيه غير العرب، في تقدمنا، في وصولنا إلى القرن العشرين. فلا يمكن أن أرتد إلى القرن الثاني لأبدأ المعرفة من هناك."30.

فهذا الحسم في مسألة قضية التعامل مع التراث اللغوي، و تحديد طرق استثمار القواعد المهمة فيه، من شأنه أن يحدد التصور العام الذي ينبغي التقيد به من أجل الاستفادة من الجانب المضيء من التراث اللغوي، والفكري، والثقافي العربي. ثم التمثل الدقيق لما وصلت له العلوم اللسانية الحديثة من نتائج بعيدا عن البحث في أصولها المعرفية أو الإثنية أو الإيديولوجية أو غيرها. ويبقى شرط العلمية والمنهجية كافية لتحقيق مطمح الاستفادة من التراث وتوظيف نتائج الفكر اللساني الحديث.

4-2- في التصور التونسي

الحديث عن التلقي اللساني يجبر الباحث والدارس في المجالات اللسانية على الوقوف عند قنوات الاتصال مع الآخر، ومن بين هذه الجسور الثقافية نقف عند عملية الترجمة التي كانت الرافد الأساس لتحديث النظر في التراث اللغوي العربي.

في هذا الباب كان للترجمة والنقل التونسي الأثر البالغ في تقديم الثقافة اللسانية إلى المتلقي العربي، تجلى ذلك مع البدايات الأولى لاكتشاف المعارف اللسانية المتضمنة في كتاب فيردناند دي سوسير " coure de linguistique générale"، وعند ذكرنا لهذا التثاقف اللساني التونسي في بداياته الأولى، نستحضر تجارب كل من عز الدين المجدوب وعبد السلام المسدي في قراءتهما لبعض الترجمات الخاصة بهذا العمل السوسيري.

4-2-1- آليات التلقي عند عز الدين المجدوب

يعلق عز الدين المجدوب على الترجمة التونسية بقوله إن الترجمات التونسية:" أكثر الترجمات وعيا بقيمة كتاب دي سوسير، وأكثرها تقديرا لصعوبة نقله إلى العربية، وقد توفر فيها من الإتقان ما يجعلها تمثل حدثا علميا في تاريخ اللسانيات العربية، وهي إذا قدر لها الرواج الذي تستحق التقرب بحق فكردي سوسير إلى القارئ العربي وتجعله ماثلا بين يديه بدون واسطة"[31].

وعلى الرغم من هذا الإطراء للتعامل التونسي مع هذا الفكر اللغوي الغربي، فإن له بعض الملاحظات حول هذه المثاقفة الخاصة بعمل دي سوسير ومنها على وجه الخصوص:

-عدم ترجمة مقدمة الناشرين، وهي وثيقة أساسية؛

-غياب فهرس للأعلام والمفاهيم، وهي من الفهارس التي تيسر الانتفاع بالعمل المترجم؛

-أما بالنسبة للمصطلحات فما يمكن أن تؤاخذ به هذه الترجمة حفاظها على مصطلح الألسنية مقابل linguistique ،والحال أن ندوة عربية أقرت مقابلا له مصطلح "لسانيات"، فكان من الواجب الإسهام في توحيد المصطلح اللساني واستقراره في العالم العربي بالاستجابة إلى ما اتفق عليه. وقد وقف على مجموعة من الأمثلة التي تبين جوانب الإخفاق في ترجمة المصطلحات اللسانية.[32]

في هذا السياق يمكن أن نذكر العمل العلمي المهم في مجال ترجمة الفكر اللساني الغربي، والذي يعد بحق فتحا في مجال التداوليات باعتباره مستوى من مستويات الدرس اللساني الحديث، من بين هذه المنارات العلمية نقف عند "القاموس الموسوعي للتداوليات"

الذي ترجم من طرف مجموعة من الباحثين التونسيين، ومن إشراف الباحث عز الدين المجدوب الذي يصرح في التمهيد لهذا العمل بالقول: "أنه يقدم عرضا وافيا ومختصرا لما آلت إليه البحوث التداولية إلى حدود سنة 1994 على الصعيد العلمي،فقد جمع هذا المصنف، على نحو طريف، بين التقاليد الأنغلوساكسونية والفرانكفونية، وقد اتسم العرض بالدقة وجودة التوثيق. لأن همة المؤلفين قد تعلقت بوضع كتاب يكون عمدة في هذا المجال، وقد نجحوا في ذلك أيما نجاح"[33].

هذا التصريح فيه من الإشارات ما يجعل المتلقي لمثل هذه الأعمال اللسانية الحديثة يستثمر كل التصورات والطروحات والنظريات في القراءة الواعية والعالمة للخطاب بصفة عامة.

إذن ورغم هذه المجهودات الفكرية والعلمية والمعرفية التي يتطلبها عمل المترجم والناقل لثقافة الآخر، تبقى عملية نقل الفكر اللساني الغربي محفوفة بمخاطر جمة؛ منها المنهجية، ومنها العلمية، وكذلك الجوانب التقنية والتي لها أهميتها في تأطير عملية المثاقفة.

4-2-1- أشكال المثاقفة عند عبد السلام المسدي

وعمل الباحث عبد السلام المسدي له من القيمة العلمية ما يجعل المتلقي للفكر اللساني الحديث يقف عند ملاحظاته على الأعمال المترجمة الخاصة بعمل اللساني دي سوسير، فقد جاء حديث عبد السلام المسدي عن هذه الترجمات مختصرا، لكنه في الوقت نفسه جاء غنيا بمجموعة من الإشارات القوية الدالة التي تستجلي واقع الترجمة اللسانية في الثقافة العربية.[34]

إنّ هذه الترجمات "تمثل بنصوصها مجالا ثريا بالنسبة إلى الباحث، بل هو مجال على غاية من الخصب والغزارة في نفس الوقت، وذلك من الناحية اللسانية في مضمونها، ومن الناحية الأكاديمية في منهجها وطرائق تحقيقها".[35]

ومما يؤخذ على هذه الترجمات:

- لم تتواءم أي واحدة من هذه الترجمات في صيغة العنوان مع أي واحدة من الباقيات: (دروس في الألسنية العامة)- (محاضرات في علم اللسان العام)-(فصول في علم اللغة)- (محاضرات في الألسنية العامة)- (علم اللغة العام)؛

- لم يكتب أي مترجم من المترجمين اسم فيردناند دي سوسير بشكل يطابق الصورة التي كتبها بها أي مترجم من الباقين: فيردنان دي سوسير- فردنان ده سوسر- فردناند دي سوسير- فردنان دي سوسور- فردناند دي سوسير؛[36].

زيادة على القراءة الواعية لعبد السلام المسدي المتعلقة بالأعمال المترجمة الخاصة بعالم اللسانيات فردناند دي سوسير، يشخص هذا الباحث واقع البحث اللساني العربي من حيث العقبات التي تعترض الباحث العربي في اللسانيات وحول واقع البحث اللساني وما يعترضه من صعوبات كثيرة سواء على المستوى النظري أو المنهجي أو التطبيقي، وبهذه المجهودات العلمية يعد هذا الباحث رائدا من رواد الدعوة إلى مد الجسور التفاعلية بين اللسانيات الحديثة والتراث اللغوي العربي.

إن عبد السلام المسدي يعد "من الباحثين العرب الذين اهتموا بما يعترض البحث اللساني العربي المعاصر من عقبات، فقد رسم صورة دقيقة وشاملة لواقع البحث اللساني العربي الحديث. وتأتي أهمية المسدي من حيث أنه يطرح أسئلة هامة حول واقع هذا البحث وما يعترضه من صعوبات سواء على المستوى النظري أو المستوى المنهجي أو على المستوى التطبيقي، وهي أسئلة تستحق كل تقدير، لشجاعة صاحبها في عرض وجهة نظره من جهة، ولأنها من جهة ثانية جديرة بالمناقشة لما تحمله من تصورات واضحة بشأن أزمة تلقي اللسانيات العربية، ولأن صاحبها من جهة ثالثة رائد من رواد الدعوة إلى مدّ جسور التفاعل بين اللسانيات الحديثة والتراث اللغوي العربي؛ كما يشهد على ذلك مصنفه ((التفكير اللساني في الحضارة العربية[37]))".[38]

هذه الموسوعية التي كانت لكل من عز الدين المجدوب وعبد السلام المسدي، تبرز بوضوح الأعمال العلمية للباحثين التونسيين الآخرين، فإلى جانب أعمدة البحث اللساني المغربي، وقد ذكرنا بعضا منهم مما دعت حاجة هذا المقال إليه، تأتي أبحاث وتنظيرات الدارسين التونسيين للفكر اللغوي الحديث لإغناء الساحة الثقافية العربية في إطار ما يسمى بالمثاقفة المتفاعلة مع الفكر اللساني الغربي.

تجميع لما قيل

إن تحديد مستويات تلقي الدرس اللساني الحديث والمعاصر تعترضه مجموعة من الصعوبات المنهجية؛ منها ما هو موضوعي متعلق في الأساس بتعدد مصادر النقل والترجمة، مما ينعكس سلبا على عملية المثاقفة وتلقي ثقافة الآخر. ومنها ما هو ذاتي متعلق بثقافة الناقل أو المترجم، وتوجهاته العلمية والثقافية. هذه العوامل كلها كادت أن تؤثر على عملية عبور الثقافة اللسانية على وجه الخصوص من الضفة الثقافية الأخرى، لولا الأعمال المتميزة لبعض الباحثين العرب واللذين أسهموا مساهمة فعالة في نقل الفكر اللسان الغربي إلى الحضارة العربية.

الهوامش و الإحالات:

[1] مارسيلو داسكال، الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، ترجمة مجموعة من الباحثين، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1987. ص 11.

[2] حافيظ اسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، الطبعة 1 – 2009، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت ، لبنان.،ص 109

[3] – مبارك حانون، مدخل للسانيات سوسير ،ط1 ،دار توبقال للنشر الدار البيضاء، المغرب. ص 5.

[4] – عبد الصبور شاهين، في علم اللغة العام، ط3، 1980، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ص26.

[5] – اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة،ص109.

[6] – اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة(م س) ص110

[7] – نعوم تشومسكي، اللغة ومشكلات المعرفة، ترجمة حمزة بن قبلان المزيني، ط1 ،1990، دار توبقال للنشر ،ص 5.

[8] – زهران البدراوي، مقدمة في علوم اللغة، ط4، 1999، دار المعارف، القاهرة. ص5.

[9] – مصطفى غلفان، اللسانيات العربية – أسئلة المنهج، ط1، 2013، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع.ص ص 14–15 .

[10] – حافيظ اسماعيلي علوي، ص 80–81.

[11] – مازن الوعر ، دراسات لسانية تطبيقية، ط1،1989، دار طلاس للترجمة والنشر، دمشق ، سوريا، ص 39.

[12] – عبد السلام المسدي ، ما وراء اللغة، بحث في الخلفيات المعرفية، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للطباعة والنشر ،تونس،1994. ص 26.

[13] – عبد السلام المسدي، اللسانيات من خلال النصوص، ص 6.

[14] – عبد العزيز حليلي، اللسانيات العامة واللسانيات العربية، ط1، 1991، منشورات مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية – دراسات سال، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب ص 3.

[15] – ميشال زكريا، الألسنية(علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،1987،ص 16.

[16] – حانون مبارك ، مدخل إلى لسانيات سوسير، ص 6.

[17] – اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص 200.

[18] – ترجمة يوسف غازي وجيد النصر، لبنان، دار نعمان للثقافة، 1984.

[19] – ترجمة صالح القرمادي و محمد الشاوش، و محمد عجينة، الدر العربية للنشر ،1985.

[20] – ترجمة يونيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، 1985.

[21] – ترجمة أحمد نعيم الكراعين، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1985.،

[22] – ترجمة عبد القادر قنيني، دار إفرقيا الشرق، البيضاء، المغرب،1987.

[23] – حانون مبارك، مدخل إلى لسانيات سوسير، ص7

[24] – الفاسي الفهري، عبد القادر، اللسانيات واللغة العربية، الكتاب الأول، اللسانيات واللغة العربية، دار توبقال للنشر ،الطبعة الرابعة سنة 2000. الدار البيضاء، المغرب، ص 56.

[25] – نفسه.، ص 57.

[26] _

[27] – هذا الاقتصار لا ينفي تواجد تصورات عربية أخرى رائدة في هذا المجال.

[28] – عبد القادر الفاسي الفهري، حوار اللغة، إعداد حافيظ اسماعيلي علوي،ط2007/1، منشورات زاوية الفن والثقافة، الرباط، المغرب ص113.

[29] – نفس المصدر، نفس الصفحة.

[30] – عبد القادر الفاسي الفهري، حوار اللغة ، ، ص113.

[31] – عز الدين المجدوب، ثلاث ترجمات لكتاب فردناند دي سوسير، حوليات الجامعة التونسية، العدد26، السنة1987، ص 47.

[32] – حافض اسماعلي علوي،ص208.

[33] – آن ريبول و جاك موشلير، القاموس الموسوعي للتداوليات، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين التونسيين، إشراف عز الدين المجدوب، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة ،ص 7.

[34]– حافيظ إسماعيلي علوي، ص209.

[35]– عبد السلام المسدي، ما وراء اللغة، ص10.

[36]– نفس المصدر ،ص8.

[37]– عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب،1973، تونس.

[38]– مصطفى غلفان، اللسانيات العربية– أسئلة المنهج، ص 115.